من الذاكرة

قصة: فاطمة الشيخ
رسوم: حسين رباعي

وَجَدْتُها!

حَياتُنا عِبارَةٌ عن مَجموعَةِ عَجَلاتٍ تَدورُ وتَدورُ، وفي دَوَرانِها حَرَكَةٌ تَنقُلُنا مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ، فَنَلتَقي بِأَشخاصٍ، ونَفتَرِقُ عن آخَرينَ. مَن يَدري؟ لَعَلَّ عَجَلَةَ الحَياةِ تَدورُ فَتَلتَقي بِصَديقِ المَدرَسَةِ، كَما حَصَلَ مَعي!

كُنّا أَصدِقاءَ إلى حينِ انتِقالِهِ إلى مَدرَسَةٍ أُخرَى. أَذكُرُ أَنَّهُ كانَ خَجولًا جِدًّا، ومُستَواهُ الدِّراسِيُّ ضَعيفًا. تَفاجَأْتُ بِهِ اليَومَ، وإذْ بي أَراهُ في المُستَشفَى، يَرتَدي زِيَّ الأَطِبّاءِ، إِنَّهُ طَبيبُ جَدَّتي، إِنَّه جَرَّاحُ قَلْبٍ!

كانَ يَعلَمُ سِرَّ اتِّساعِ حَدَقَتَيَّ، وشَرَعَ يُحَدِّثُني: الفَضْلُ يَعودُ لِلهِ الَّذي رَزَقَني بِأُمٍّ لا تَستَسْلِمُ! بَعدَ انتِقالي إلى مَدرَسَةِ الحَيِّ، أَجبَرَتْني أُمّي على الذَّهابِ أُسبوعِيًّا إلى المَكتَبَةِ العامَّةِ. كُنتُ أَنتَقي أَيَّ كِتابٍ، وأَعودُ بِهِ إلى البَيتِ مُتَذَمِّرًا. أَوَّلَ الأَمرِ كانَ مُرًّا بِالنِّسبَةِ لِي، إِذْ كُنتُ أَتَساءَلُ في نَفْسي، لِماذا أَصْبَحَتْ أُمّي كَالمُعَلِّمَةِ تَفرِضُ عَلَيَّ واجِباتٍ لا أُحِبّها؟ كانَ عَلَيَّ حِينَها أَنْ أَقْرَأَ ثُمَّ أُلَخِّصَ ثُمَّ أَقْرَأَ التَّلخيصَ شَفَهِيًّا أَمامَ عائِلَتي.

لَكِنْ بَعْدَ ثَلاثَةِ أَسابيعَ بِالظَّبطِ، عَرَفْتُ أَنَّني أَميلُ إلى الكُتُبِ العِلْمِيَّةِ، وصِرْتُ أَقْرَأُها بِشَغَفٍ. بَعدَ مُدَّةٍ قَصيرَةٍ، أَرسَلَتِ المُعَلِّمَةُ لِأُمّي: " هَنيئًا لَنا بِكِ، لَقَدِ اسْتَطَعْتِ تَدريبَ اِبنِكِ بِشَكلٍ جَيِّدٍ". لَكِنَّ أُمّي لا تَقْرَأُ، وإِنَّما كانَتْ تَستَمِعُ لِي، تَتَفاعَلُ مَعي، وتُشَجِّعُني كَيْ أَقْرَأَ المَزيدَ، وتُحاوِلُ مَعي إيجادَ أَجْوِبَةٍ لِأَسئِلَتي.

لَمْ تَقُلْ لِي أُمّي اِجلِسْ وادرُسْ جَيِّدًا، بَل قالَتْ جُملَةً واحِدَةً: "اِذهَبْ واقْرَأْ كِتابًا".
لَمْ تُحَدِّدْ لي أُمّي ما أَقْرَأُهُ، لَقَدْ ساعَدَتْني عَلَى **إيجادِ نَفْسي بِنَفْسي.**

كُلَّما كُنتُ أَقْرَأُ أَكثَرَ، كُلَّما كُنتُ أَسْأَلُ أَكثَرَ، وأَتَقَدَّمُ أَكثَرَ، حَتّى صِرْتُ أَنالُ مِنَحًا دِراسِيَّةً في الثّانَوِيَّةِ والجامِعَةِ، وها أَنْتَ تَراني هُنا، أَخَذْتُ عَهدًا عَلَى نَفْسي أَنَّني سَأُساعِدُ النَّاسَ قَدْرَ اسْتِطاعَتي، بِقَدْرِ ما ساعَدَتْني أُمّي الَّتي لَمْ تَسْتَطِعْ حُضورَ حَفْلِ تَخَرُّجي بِسَبَبِ سَكْتَةٍ قَلبِيَّةٍ!".